مشابهات

الأستاذ عباس محمود العقاد

في شهر واحد عرضت دور الصور المتحركة بالقاهرة روايتين متشابهتين في كثير من السمات والمعاني ، وإن كانت إحداها في باريس والأخرى في بتروغراد ، أو كانت إحداها في القرن الثامن عشر والأخرى في القرن العشرين ، أو كانت إحداها عن لويس السادس عشر والأخرى عن القيصر نقولا الثاني

كتبنا مقالنا الماضي بالرسالة عن « مارى أنطوانيت » فلم تمض أيام حتى شهدنا رواية « راسبوتين والقيصرة » وشهدنا كيف تتشابه الحوادث والنكبات ، وكيف يصدق في بعض الأحايين قول من قال إن التاريخ يعيد نفسه ، وإن كانت الإعادة لا تخلو من تبديل وتنقيح : شيمة الراوية الماهر الذي لا يعيد القصة الواحدة مرتين بأسلوب واحد !

* * *

في مأساة لويس السادس عشر ومأساة نقولا الثاني مشابه كثيرة يرجع بعضها إلى المصادفات وبعضها إلى تشابه النتائج عند تشابه الأسباب

فكانت لكليهما ملكة أجنبية من أصل ألماني ، وكانت لكلتا الملكتين يد في الكارثة التي حاقت بالرجلين ، وكان التاريخ في كليهما يجري على سنة « الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » ولا يعمل بآية العدل في القرآن الكريم : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

فقد كان نقولا الثاني مظلوماً فيما أصابه كما كان لويس السادس عشر

كان كلاهما طيباً رؤوفاً يريد الخير لشعبه ؛ وكان نقولا الثاني محباً للسلام ينادي بالتحكيم في الأزمات الدولية ؛ وكان يجنح إلى مشاركة الأمة إياه في تبعات الحكم ما استطاع ، وكان منقاداً لمن حوله كما كان لويس من قبله ، ولم يكن مشاكساً ولا بطاشاً يحب الفتك وسفك الدماء ، ولكنه جاء في زمن وبيل فأصابه وبال الزمن وأخذه مع التيار الجارف الذي لا يتأنى ولا يتدبر في حكمه على الجناة والأبرياء

١٦ ١٢ ٥

ليست هذه هي المشابهات الهامة في تاريخ الرجلين المظلومين ، فربما كانت أو كان معظمها من أثر العوارض والمصادفات ، ولكن المشابهة العظمى هي تلك « الحالة العقلية » التي تحيط بالعوالم المنهارة والدول الذاهلة والكواكب الآفلة ، ونعني بها العهود التي تجمع بين الإدبار والإقبال وبين النظر إلى الغيب والخوف من الحاضر وقلة الاطمئنان إليه

في تلك العهود يحس الناس أنهم ضعاف عاجزون ، لأن زمام الحوادث يفلت من أيديهم وتيار الحوادث يجرفهم على غير إرادتهم إلى غير الطريق الذي يختارونه لأنفسهم ، فهم من أجل هذا الإحساس بالعجز والضعف ينظرون إلى الغيب ويتطلعون إلى عالم الأسرار ويؤمنون تارة بالقديسين وتارة بالمشعوذين ، على قدر نصيبهم من العلم والبصر بحقائق الحياة

وفي تلك العهود يضمحل الأمل ويغلب اليأس ويبطل الإيمان بالمثل العليا والصفات الرفيعة فيقبل الناس على المتعة والسرور ، ويأخذون من الحاضر كل ما يعطيهم من اللذة واللهو ، لأنهم لا يرجون غداً ولا يركنون إليه

وقد تجمع النفس بين النقيضين : فهي مغراة بالشعوذة والنظر إلى المغيبات المجهولة ، وهي مغراة باللذة في حاضرها ؛ لأن الحاضر بغير شاغل من الشواغل لا يطاق في أمثال تلك الأزمان

إنما المرجع في طلب الغيب وطلب اللذة معاً إلى سبب واحد ، وهو أن الحاضر مشؤوم والمستقبل غير مضمون ، والإنسان بينهما عاجز عن التصرف بمشيئته فيما يزاول من كبار الأمور وصغارها على السواء

* * *

من أجل هذا ظهر « كاليسترو » الدجال الأعظم في عهد لويس السادس عشر

ومن أجل هذا ظهر « راسبوتين » الدجال الأعظم في عهد نقولا الثاني

وكلاهما دليل على تشابه الحوادث والدوافع النفسية بين بني الإنسان

وكلاهما دليل على أن التشابه في بني الإنسان لن يمحو الفوارق بين الشعوب ، ولن يزيل الخصائص القومية التي اشتهر بها كل شعب من تلك الشعوب

فراسبوتين لم يكن يصلح في مكان كاليسترو ... وكاليسترو لم يكن يصلح في مكان راسبوتين

راسبوتين ظهر بين الروس وهم أمة لا شرقية ولا غربية ، لا مؤمنة كل الإيمان بالدين ، ولا مؤمنة كل الإيمان بالوثنية ، لا متحضرة بحضارة العلم الحديث ، ولا مستغرقة فى البداوة أو جهالة القرون الوسطى

فظهر لما ظهر بين هؤلاء القوم برسالة من الدين ومن الوثنية فى وقت واحد ، أو برسالة من الشعوذة ومن اللذة فى عقيدة واحدة ، أو برسالة يمت بعضها إلى زهادة المسيح ويمت بعضها إلى المزدكية القديمة ، وإلى عبادة «عشتروت» التى هى أقدم منها ، وإلى ما قبل ذلك من المذاهب الخفية التى لم تنقطع بقاياها قط فى الرقعة الغربية الجنوبية من القارة الأسيوية ؛ أى فى ذلك المكان المعزول الذى تصل إليه آثار الحضارات جميعاً فى آسيا وأوربا وأفريقية ، ثم يحفظها جميعاً فى عزلته المطوية بعد أن يصبغها بماله من صبغة قلما تمسحها الأجيال

فى تلك الرقعة بقيت عبادة الشيطان ، وبقيت الشواذ من فرق الباطنيـة ، وبقيت تلك النحلة التى تبيح فى تكاياها وصوامعها باسم الدروشة الإسلامية ما ليس يبيحه الإسلام وليس يرضاه دين من الأديان الكتابية ، وبقيت نحلة « الخليستى » التى انتمى إليها آخر الأمر « راسبوتين » وكانت أصلح ما ينتمى إليه رجل يدل نعته القديم على طبعه القديم . فإن « راسبوتين » كلمة روسية معناها الفاجر أو الداعر ... وهو لقب اشتهر به الرجل فى شبابه من جراء عبثه وعيثه واستهتاره بالشراب والفسوق

ما هى هذه « الخليستيـة » وما عباداتها وشعائرها المفروضة على أتباعها ؟

هى نحلة مدارها على أن الخطيئة مطلوبة لأن الغفران صفة إلهية فينبغى أن تتحقق لله هذه الصفة التى هى أخص صفات الخالق جل وعلا . وإلا فكيف يكون الله غفوراً بغير الخلائق الخاطئين ؟

ومدارها من جهة أخرى على أن الإنسان يعيش بالروح مع الله ويعيش بالجسد مع الناس ، وأن لله قديسين هم الذين يقودون عباده فى طريق المعيشة الجسدية وفى طريق الغفران . فليس يحق للعبد أن يخطىء وحده بغير قيادة من قديسه المختار

وعلم راسبوتين « سلطانه المغناطيسى » العظيم على نفوس أتباعه فزعم أنه قديس الزمان المرسل من قبل الله لالتماس الغفران ، فبغيره لن يهتدى أحد فى « الطريق » إلى حظيرة الرحمن !

أما هذا « السلطان المغناطيسى » فقد كان فى راسبوتين كأقوى ماعرف فى إنسان من الناس ، حتى بلغ من سطوته أنه سلطه على رجل يمقته وينصب حوله الفخاخ لقتله بالسم أو الخنجر فأنامه وشل حركاته . ولا ريب أن هذا السلطان المغناطيسى مستمد فيه من تلك القوة الحيوانية الهائلة التى أنقذته من السم ومن الخنجر مرتين ، وكادت تنقذه المرة الثالثة لولا إطباق المتآمرين عليه بالعصى والسيوف بعد إطلاق الرصاص عليه وتسميمه بما يكفى لقتل بضعة رجال ، ولا ريب كذلك أن هذا السلطان المغناطيسى هو الذى أعانه على شفاء ولى العهد بالسيطرة على أعصابه وسريرته بعد ما يئس منه الأطباء وأنذروا بموته من أثر سقامه الموروث

* * *

بهذه العدة كان الدجال الروسى يستعد لإنجاز « مهمته التاريخية » فى ذلك العالم المنهار من الدولة الروسية

فماذا استعد زميله « كاليسترو » من قبله حين تصدى « لمهمته التاريخية » بين الفرنسيين فى عصر الفلاسفة الشكاكين والدعاة الملحدين الثائرين ؟

لا بد له من عنصر الغيب والخفاء ، ولا سبيل إلى هذا العنصر من طريق النحل الدينية فى تلك الآونة الملحدة المستريبة ، فلينقل أتباعه إذن إلى صوامع الماسون وهيا كل الجماعات السرية ومكامن الدسائس والمؤامرات

ولا بد له من عنصر الغواية والمتعة ، ولا سبيل إليهما من نحلة الدروشة والعبادة ، فليسحر أتباعه إذن باسم عقاقير الشرق التى تجدد الشباب وتطيل العمر وتكسو غضون العجائز مسحة الصبا ورونق الصباحة

وهكذا كان لكل « عالم منهار » دجاله الأعظم ، ومن ثم موضع التشابه بين العوالم المنهارة

وهكذا كان دجال كل أمة على غرارها أو على نموذج أخلاقها وأطوارها ، ومن ثم موضع الخلاف بين تلك الأشباه

وإنما عبرة التاريخ أن نخلص إلى هذه المواضع المتشابهات ، وهذه المواضع المختلفات من حوادث الشعوب فى قبضة القانون الخالد المستعاد .

عباس محمود العقاد